الفصل الثانى

ماهية الشعر ورسالة الشاعر

فى تعريف اسماعيل أدهم للشعر ينطلق من منهج لغوى مقارن . فيقف أمام مدلول الكلمة فى اللغة العربية ، ثم يعرض لشواهد من استخدام الكلمة فى آيات من القرآن الكريم ، ويخلص من ذلك إلى منهج مقارن يكشف من خلاله عن استخدام الكلمة فى العربية وما يحمل من دلالات .

ينقل اسماعيل أدهم تعريف الأزهرى للشعر : الشعر القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها ، والجمع أشعار ، وقائله الشاعز ، لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره " (١) .

على أن دلالة الكلمة فى التراث العربى القديم فى الجاهلية حملت معنى العلم والمعرفة فنقول شعرت به أى علمت ، وليت شعرى ما كان أى ليت علمى محيط بما كان ، وشعرت بكذا فطنت له .

والأصل فى الكلمة " الشعور " جاء فى القرآن الكريم . " وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون " (٢) بمعنى ما يدريكم . ثم تطور معنى الكلمة من الشعور إلى المعرفة والعلم .

ينتقل اسماعيل أدهم – من ثم – لمناقشة أراء بعض العلماء من المستشرقين فيرفض رأى من يذهب إلى أن الكلمة ذات اصل فى لغة العبريين بمعنى الترتيلة والتسبيحة المقدسة . ويشير إلى أن هذا مجرد وهم وسببه أن الكلمة استعملت بهذا المعني فى بعض مواضع من العهد القديم فبينما هى فى الأصل تفيد معنى الشعور . ثم انتقلت إلى معنى العلم والمعرفة فى اللغة العبرية . فلفظة " شأر " (٣) العبرية تستعمل بمعنى المسكة من العقل والمعرفة ، كما هو فى ملاخى – إصحاح ثان فقرة ١٥ – وهذا الاستعمال المقابل فى العبرية للاستعمال العربى يحمل فى نفسه أصلا يدل على الشعور .

وقد اشتركت العبرية والعربية فى دلالة الكلمة وتطورها من معنى الشعور الى معنى العلم (٤) .

فالشعر عند العرب شعر من حيث هو فيض الشعور .والشاعر وجمعه شعراء ، لفظ يطلق عند العرب على من يقرض الشعر . ومن حيث أن لفظة الشعر نقلت من باب الشعور بالشئ إلى العلم به فإن لفظ شاعر استعمل للدلالة على أهل الحجى من العرب ، من حيث هم أصحاب المعرفة والعلم . ولما كان العلم والمعرفة عند العرب لهما أصل مستمد من الغيب ، فإن اصحاب الحجى هم أصحاب المعرفة من المتصلين بقوى الغيب من الجن والشياطين . ومن هنا

جاء أن لكل شاعر شيطانا يوحى إليه بما يقول (٥) .

وحديث اسماعيل أدهم عن وظيفة الشعر ورسالة الشاعر ، يشى بصدوره عن النظرية الرومانسية فى نظرتها للفن والفنان أو للشعر والشاعر .

فوظيفة الشعر عند اسماعيل أدهم هى " التعبير عن الحياة فى سرها الروحى ... ولما كان الشعر تجربة الدنيا تملى على الشاعر صورا من الحياة ، فهذه الصور من حيث انها تخالط شعور الشاعر وتجئ من وجدانه ، فإنها تجعل أغراض الشعر منتهية عند حد التعبير عما فى الوجدان من معانى الحياة وصورها التى خالطته ... فالشاعر انسان لا يعنى بالجمال إلا قدر ما هو مثبت فى تضاعيف الحياة التى تبدو معكوسة فى اطار ذاته ، وهو الى هذا لا يعنى بإبراز اللذة والألم في شعره إلا بالمقدار الذى يخالط شعوره منها (٦) . وعمق استيعاب الشاعر للحياة ومنحى إبرازه وعرضه لمشاعره وإحساساته تحدد معنى قيمة الشاعر من الشاعرية الصحيحة .

ففن الشعر عند اسماعيل أدهم يقوم على نظرية التعبير ، لب النظرية الرومانسية . وهى النظرية التى تتغامل مع الفن من خلال معطيات الفنان .

لقد تركت نظرية التعبير بصماتها عليالنقاد المعاصرين لاسماعيل أدهم . فالعقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) يرى ان الأدب تعبير ، والتعبير غاية مقصودة وغاية كافية .. ولا فرق بين الأديب المعبر بنظمه ونثره ، وبين الموسيقى المعبر بألحانه ونغماته ، فكلاهما يصف النفس الإنسانية فى حالة من حالاتها (٧) . والشعر هو التعبير الجميل عن الشعور الصادق ، وكل ما دخل فى هدا الباب - باب التعبير الجميل عن الشعور الصادق - فهو شعر وان كان مدحا أو هجاء أو وصفا للإبل أو الأطلال ، وكل ما خرج عن هذا الباب فليس بشعر وإن كان قصة أو وصف طبيعةاو مخترع حديث (٨) والتعبير الجميل عن الشعور الصادق عالم لا ينحصر فى قالب ولا يتقيد بمثال (٩) . والشاعر الذى لا يعبر عن نفسه - عند العقاد - صانع لأنه لا توجد عنده سليقة إنسانية بل سليقة لغوية (١٠) ولقد وقفنا بتعريف اسماعيل أدهم والعقاد على ربط الشعر بالتعبير من خلال تعريف الشاعر . وهذا بنسجم مع مفهوم النظرية الرومانسية التى تنظر للعمل الشعرى من زاوية الفنان . ومن هنا نفهم معنى قول العقاد : أما الشاعر فاسمه بلغتنا يشير إلى تعريفه ، ولعل معجما من معاجم اللغات لا يتضمن اسما للشاعر أدل على مسماه من اسمه فى اللغة العربية (١١) والشعر الصحيح فى أوجز تعريف هو ما يقوله الشاعر ، والشاعر فى اوجز تعريف هو الإنسان الممتاز بالعاطفة والنظرة إلى الحياة ، وهو

القادر على الصياغة الجميلة فى إعرابه عن العواطف والنظرات (١٢) فالشعر " حقيقة الحقائق ولب اللباب والجوهر الصميم من كل ما له ظاهر فى متناول الحواس والعقول وهو ترجمان النفس والناقل الأمين عن لسانها (١٣) .

وعند المازنى يطالعنا بتعريف للشعر على أنه " خاطر لا يزال يجيش بالصدر حتى يجد مخرجا ويصيب متنفسا (١٤) . وفى معرض تفرقته بين النثر والشعر يقول : لو كان يستوى أن نسوق الكلام نثرا أو شعرا لما نشأت الحاجة إلى الشعر ، بل لكان الشعر قيدا اختياريا لا معنى له ولا مزية فيه ، ولكن الواقع أن الشعر فن قائم بذاته ، لم يخترعه الإنسان ، ولكن سيق اليه وتدفقت إليه عواطفه (١٥) فالشعر هو صورة صادقة لنفس صاحبه الحية الواعية ، لما يدور فيها ويطيف بها ويجرى حولها ، ولكل طور من أطوارها وحالة من حالاتها ، وجانب من جوانبها . ولابد فى الشعر من عاطفة يفضى بها إليك الشـاعر ويستريح أو يحركها فى نفسك (١٦) .

وإطلالة على ديوان عبد الرحمن شكرى " ضوء الفجر " يطالعنا على صفحة الغلاف بقوله :

ألا يا طائـــر الفـــردوس إن الشـــــعر وجـدان (١٧)

وإنما الشعر إحساس بما خفقت له القلوب كأقدار وحدثان (١٨)

وعند عبد الرحمن شكرى نجد أن العاطفة تحتل مكانا رفيعا . فهى للشعر بمكانة النور والنار (١٩) .

وعلة الشعر عند د . محمد حسين هيكل (٢٠) (١٨٨٨ - ١٩٥٦) ، تقوم على أساس عميق سنده الشعور الإنسانى الصحيح . من هنا يتحفظ د . هيكل على شعر المناسبات . ويرد علة التهافت فى هذا الشغر الى ان " الإلهام ينطبع فى النفوس من حوادث خارجة عنها ، فى حين ان الإلهام فى الشعر الصحيح داخلى يصدر عن النفس ذاتها ويهتز كل وجود الشاعر لأنه الفيض (وقد اكتسبت هذه الكلمة قداسة لدى الشعراء الرومانسيين) المضئ لدخيلة حياته ، ولكل ايمانه ولكل عواطفه وكل وجوده (٢١) فلا بد من أن تكون هناك مناسبات تحرك نفس الشاعر وتهزها من الأعماق ، فتدفعها إلى الافاضة بمكنون ما فيها .

فرسالة الشعر عند " هيكل " تتبلور فى أن يكون الشعرُ " أداة صالحة للتعبير عما يجيش بالنفوس وتضطرب به الخواطر وهو يربط بين رسالة الشعر وحرية الشعور التى تدفع الشاعر أن يشدو بالشعر بوحى ما فى نفسه ، وما تلهمه حياته فيأتى شعره شعر النفس الفياضة لاشعر الظروف التى شعر فيها وأن يصور ما يصدر عن وحى الروح وإلهام العاطفة وفيض الفكر (٢٢) وفى تعليله لسر عبقرية" شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) يرى أنها تكمن فى قدرته على أن يرى دخيلة " النفس الانسانية ... فأنت لا تقرأ له مسرحية ولا مقطوعة إلا وجدت من وصف هذه المظاهر وصفا وديعا يدلك على مبلغ تأثرها فى اعصاب هذا الشاعر الدقيق الحس تأثيرا يجعله يندفع إلى الاعجاب بالجمال وتقديسه (٢٣) .

أما ميخائيل نعيمه (١٨٩٩ - ١٩٨٨) ، فمن (الغربال) يطالعنا برؤيته للشاعر فهو عنده " نبى وفيلسوف ومصور وموسيقى وكاهن . نبى لأنه يرى بعينيه الروحية ما لا يراه كل بشر .ومصور لأنه يقدر ان يسكب ما يراه ويسمعه فى قوالب جميلة " من صور الكلام . وموسيقى لأنه يسمع اصواتا متوازية حيث لا نسمع نحن سوى هدير وجعجعة . العالم كله عنده ليس سوى آلة موسيقية عظيمة تنقر على أوتارها أصابع الجمال ... ولشاعر الذى تعانق روحه روح الكون يدرك هذه الحقيقة اكثر من سواه . لذلك نراه يصوغ أفكاره وعواطفه فى كلام موزون منتظم " . " واخيرا - الشاعر كاهن لأنه يخدم إلها هو الحقيقة والجمال . وبالاختصار إن روح الشاعر تسمع دقات أنباض الحياة وقلبه يردد صداها ولسانه يتكلم "بفضلة قلبه "تتأثر نفسه من مشهد يراه أو نغمة يسمعها فتتولد فى رأسه أفكار ترافقه فى الحلم واليقظة فتمتلك كل جارحة من جوارحه حتى تصبح حملا يطلب التخلص منه . وهنا يرى نفسه مدفوعا الى القلم ليفسح مجالا لكل ما يجيش فى صدره من الانفعالات وفى رأسه من التصورات ولا يستريح تماما حتى يأتى على آخرقافية فيقف هناك وينتظر الى ما سال بين شفرتى قلبه كماتنظر الأم الى الطفل الذى سقط من بين أحشائها . أمامه فلذة من ذاته وقسم من كيانه " .

ان (ميخائيل نعيمه) يعلو بالشاعر - حيث تعانق روحه روح الكون ويعود برسالته ، بالمفهوم ،إلى سيرته الاولى. ويلتقى مع كوكبه نقاد الرومانسية : العقاد ، هيكل ، المازنى ، اسماعيل أدهم .أولئك الذين ينظرون الى أن الشعر يصدر عن **الذات الشاعرة** ، فعنده أن الشاعر : لا يأخذ القلم فى يده إلا مدفوعا بعامل داخلى لا سلطة له فوقه ، فهوعبد من هذا القبيل لكنه سلطان مطلق عند ما يجلس لينحت احساساته وافكاره تماثيل من الألفاظ والقوافى لأنه يختار منها ما يشاء . فيختار الأحسن اذا كان من المجيدين أو ما دون ذلك

بالتدريج حسب قواه الفنية والأدبية .

هكذا استقى هؤلاء النقاد من نبع الرومانسية ومن معينه قاموا بصياغة وجدان المتلقى .

* * *

وعلى نحو ما لاحظنا، فنقاد الرومانسية ، قد ربطوا بين ماهية الشعر والشاعر . فمن خلال الشاعر يصلون الى الشعر . وما دمنا فى دائرة (**الشاعر**) فنولى البحث وجهة أخرى حيث تسلط فيها الضوء على البعد النفسى . وقد أفاض اسماعيل أدهم ، فى الإلحاح على أن الشعر تعبير عن صاحبه (٢٤) .

عند اسماعيل أدهم أن الشاعرية تستند على محورين :

الأول عمق مخالطة وجدان الشاعر للحياة . والثانى منحى أو طريقة عرضه الإحساسات والمشاعر التى يخلص بها من هذه المخالطة التى تنجم عن تأثره بمحيطه الاجتماعى .

إن الشاعر - عند اسماعيل أدهم- ينظر الى العالم من خلال الأنا ومن ثم ، فانسحاب ذاتية الشاعر على الحياة ، ومجئ شعره من مخالطة وجدانه لها ، تستمد خطوطهامن نفس الشاعر وطبيعته ، بمعنى ان الشعر - من حيث الموضوع - قطعة من الحياة بعرضها لنا الشاعر من خلال مزاجه وينقلها الى الجو الذى خلقه فى شعره فنشعر وكأننا نحيا فيه ونتحرك . هذا العرض مستمد من ذاتية الشاعر ومزاجه الذى يتأثر ببيئته الاجتماعية .

ومن ثم فالشعر **مظهر نفسى** يدل على وجه تفهم الحياة والاحساس بها (٢٥) ويقول " لما كان الشعر يفيض من وجدان الشاعر متخذا لنفسه القالب اللفظى الدال عليه ، فإن الجو الذى فى نفس الشاعر يتخذ الألفاظ التى تخلق بذاتها فى عالم الشعر نفس الجو الذى يحس به الشاعر فى عالمه الداخلي مجردا . وعن طريق هذا الجو الذى يخلقه الشاعر من الألفاظ فى شعره ننتقل إلى الجو الذى كان هو فيه ، فنشعر وكأننا نحيا فيه ومعه نتحرك (٢٦) " وفى موضع آخر يلح على أن الشعر شئ يتصل بنفس الشاعر وفيض وجدانه ومنحى تعبيراته (٢٧) .

وقد التقى اسماعيل مظهر (١٨٩١- ١٩٦٢) فى هذه الفكرة ، دلالة الشعر على

نفسية صاحبه ، مع اسماعيل أدهم . فالشعر عنده يدل دلالة صحيحة على حقيقة نفسية الشاعر . فإن الشعر هو الصوت الصارخ الخارج من أعماق النفس ، بل ومن أعمق أغوارها ، ليسبك فى اللغة عنوانا حيا على النفسية التى بعثته من قرارة الوجدان إلى عالم الخطاب .

ومهما يكن من تأثير روح العصر على الشعر والشعراء ، ومهما يكن من أمرحاجات الحياة وتأثيرها فى الشاعرية ، إذ تقلبها فى بعض الأحيان الى صناعة للنظم تبدو جلية واضحة فى المديح وغيره من صور الشعر ، قضاء لحاجات ما تحركت لها الشاعريه ، ولا فتنت بها النفس ، فإن الشاعر لن يفلت من القدر مطلقا ، ولا بد من أن تعثر فى شعره على خطرة أو مقطوعة قصيرة أو مناجاة يتوسل بها الى الله او الى الطبيعة أو إلى شئ او معنى قد يشعر به ولا يستطيع التعبير عنه ، ما تنم فى الدنيا عن شئ إلا عن دخيلة فطرته وعن نواتها التى التأمت من حولها كل عناصر نفسه .

ويرى اسماعيل مظهرأن أدل صور الشعر على نفسية الشاعر انما هو شعر الانفعال . والشعرالذى يبعثه انفعال خالص فى النفس غير مشوب بشئ من حزم الإرادة ولا وازع العقل ولا تكلف من ناحية الصناعة (٢٨) .

والعقاد يلح على أثر التعبير بوصفه عطاء للحالة النفسية التى تقوم بالنفس . ومن هنا فالتعبير فعل مكتف بذاته (٢٩) .

واسماعيل أدهم يرى أنه على قدر اهتزاز أو تار نفس الشاعر بما فى الحياة من أشياء وقدرته على التعبير عن رؤيته الذاتية تقاس شاعريته . ذلك انه لما كان الشعر من حيث هو فيض الشعور والوجدان نتيجة اهتزاز أوتار النفس البشرية أمام الحياة الكامنة فى الأشياء ، فإنه على قدر الاهتزاز وقوته تكون مقدار شاعريته فى الشعر ، ذلك أن الهزة التى تستولى على نفس الشاعر كلما كانت قوية تكشفت أسرار الحياة ومعانيها لوجدان الشاعر فى حقيقتها فتجعل الشاعر قادرا على النفوذ عن طريق وجدانه ،الى ما وراء المظاهر الخارجية للأشياء ، ومن هنا يمكن أن يقال أن الطبيعة تلقى جانبا من معانيها الخالدة لنفس الشاعر فى اهتزازات أوتار نفسه امامها . فالشاعر أشبه بآلة موسيقية أمام الطبيعة . والطبيعة كالأنامل التى توقع عليها والأنغام التى تخرجها الآلة اشبه ما تكون بالشعر الذى يفيض به وجدان الشاعر (٣٠) .

الشاعر والطبيعة :

وقراءة النص السابق تشى بالفكرة المحورية التى طرحها اسماعيل ادهم دون ان يعطيها

ما تستحق من اهتمام فى مقالاته ، أعنى علاقة الشاعر بالطبيعة . وهذا يرجع الى طبيعة المقال وما يفرضه من معالجة خاصة تغاير منهج اعداد كتاب منهجى . ومعلوم أن اسماعيل أدهم كان يغمر المجلات بآرائه ، ونقداته ولم يجمعها فى مقالات بحيث يهذبها ويعمقها كما يحدث عادة .

ومهما يكن من أمر ، فيهمنا ان نقف امام هذا المحور من محاور النظرية الرومانسية لنتعرف على مدلوله باعتباره دعامة من دعاماتها .

اعتقد الرومانسيون أن خلف ظواهر العالم المحيط بنا ، حقائق روحية غير مرئية . وإذا كنا لا نستطيع أن ندرك هذه الحقائق ادراكا حيا فإن الشاعر وحده هو الذى يستطيع أن يكشف عن هذه الحقائق الروحية ، معتمدا على خياله الخالق ومتوسلا بالحدس ، والبصيرة ، والرؤيا . وقد كان هم الشاعر الرومانسى منصبا على إماطة اللثام عن هذه القوى وتسليط دائرة من النور تستطع بشمسها على عالم المحسوسات او لنقل تستمد طاقاتها من عالم المحسوسات . فالشعراء الرومانسيون يعتقدون ان لكل شئ ظاهرا تدركه الحواس وباطنا يدركه الشاعر بخياله وحدسه وبصيرته ، هذا الباطن هو جوهر الشئ وحقيقته الروحية ووظيفة الشاعر هى ان يكشف عن هذا الجوهر الخبئ ويجسده فى شكـل رمز أو صورة تستعار من العالم الخارجى .

إن الرومانسية ترى أن للأشياء ظواهر وبواطن وفى هذا يقول تشارلز مورجان " ... فالرومانتيكية تعنى دائما بطبيعة الاشياء التى تتناولها وجوهرها أكثر مما تعنى بمظاهرها ، وأنها لا تعنى بمظاهرها إلا بقدر ما تشير إلى طبيعتها وجوهرها . ولهذا السبب تتهم فى كثير من الاحيان بانها غير واقعية أو بالرطانة الحديثة . وأصحاب هذا الاتهام هم من يعنون أولا بالظواهر ، فى حين أن ما تبحث عنه الرومانتيكية أو ما يهرب اليه هو فى حقيقة الامر واقع اعمق مما يحلمون به ، فالبحث عن الواقع الكامن تحت المظاهر هو جزء من البحث عن شئ يتجاوز التنافر المحسوس ويحوله إلى انسجام (٣١) .

ومعنى هذا أن الرومانسية حينما تنفذ إلى (**باطن**) الشئ فإنما تسعى نحو ايجاد حل للتنافر الذى يترائ فى (**الظاهر**) ، هذه الرؤية (**الباطنة**) تعيد الانسجام بين (**الظاهر**) و (**الباطن**) وحول هذه المعانى يفسر " العقاد " العلاقة بين الظاهر والباطن .

ليس بين ظواهر الاشياء وبواطنها حد فاصل ، فكل البواطن ظواهر مكشوفة لو احسن

النظر اليها من الجهة المثلى ، وكل الظواهر بواطن خفية لو أسئ النظر الى تلك الجهة منها ، ومن البديهيات عند قوم ما يعد أسرارا مغلقة عند أقوام آخرين (٣٢).

ويتناول العقاد توجه الشاعر نحو الطبيعة ، هذا التوجه المعرفى الذى يعيد اكتشاف الطبيعة " ... فهو الذى يسمعك الخليقة الأولى منقولة من لفظ السموات والأرض منظومة فى لحن ، ويبثك من هذه الدنيا الإلهية نبضات أغوارها وصدحات افلاكها وما توسوس به وما تزمجر من نغمات رضاها وغضبها وطلاسم صلواتها وتعاويذها ، يستوعب ذلك كله ألغازا مبهمة ثم يرسله من خاطره المتوهج الصهار أرواحا هائمة وشياطين حائمة وعرائس ترقص وطيرا تغرد وزهرا يتضوع ومعانى يمتلئ بها جو هذه الدنيا حياة وركزا * ، يزدحم بها جو النفس شعورا وأملا ، أو هو يكتب لك يهيروغليفية الإلهام فى كل ما فى معجم الطبيعة من الكلمات والرموز ، وكل ما يجرى به لسانها المورى الملغز من الاسماء والحروف ، فاذا الطبيعة بقضها وقضيضها مجموعة لديك وإذا بك انت تعيش فى كل ناطقة وصامتة ومتحركة وساكنة من ذلك العالم السرمدى الرحيب ، تحوله إلى جزء من حياتك أو تجعل حياتك ممدودة مبسوطة فى كل جزء منه "(٣٣) فمدرسة الديوان متوافقة مع المدرسة الرومانسية فى موقفها من الطبيعة فكل شئ فى الطبيعة له ظاهر وباطن ، له عرض وجوهر ، له حقيقة روحية داخلية، ومظهر شكلى مادى محسوس ، ووظيفة الشاعر هى أن يكشف عن بواطن الأشياء ويزيح الستار عن حقائقها الروحية، ويبرز جواهرها الخبيئة (٣٤) .

غير أننا لا نستطيع أن نصل إلى (**الجوهر**) بدون (**العرض**) ، ولا أن ننفذ إلى الباطن دون الخارج ، ولا ان نستوعب حقيقة الشئ الروحية دون ان نستعين على ذلك بمظهره الحسى الخارجى إذ أن الدنيا جمال نصل إليه من طريق الضرورة ، والدنيا روح نلمسها بيد من المادة ، فالروح هى الحقيقة والمادة هى وسيلة الإحساس بها (٣٥) .

فليس ثمة تناقض بين العالم المادى والعالم الروحى . فالصواب عنديأن العالم كله قوى من طبيعة الروح التى نتصورها ، وما الفرق بين الظاهر والباطن فيها إلا فى طريقة الإدراك واستعداد الحواس (٣٦) .

والمازنى يتحدث عن سفر الطبيعة الذى يتلوه الشاعر على الناس ، مفسرا لهم كلماته ورموزه ومعانيه . فكما أن النبات يحول معـــادن الأرض غـــذاء صـــالحا للحيوان ، كذلك (الشاعر) العظيم يتناول الطبيعة فيستخدمها ويجئ منها برجعة صالحة ، والطبيعة اذا صادفت كفؤا حقيقيا بها ، وواعيا مطيقا لها ، وناهضا مستقلا بأعبائها ، أضفت عليه

ملابسها ، وكشفت له عن نفائسها ، وأحاطت عن سرها الحجب ، ونفت عنه معتلج الريب ، وكانت له رائدا فيما يطلب وهاديا حيث يؤم ويذهب . وإنما تفصح الطبيعة عن مضمونها وتظهر مكنونها لمن تكون فيه القدرة على فهمها ، وتوسمها من معاريض رموزها ، واستشفافها من وراء لثامها ، ومن تظن فيه الايفاء فى الوفاء ، وتستشعر منه الابرار فى الحفاظ ، فإن دقائق الطبيعة واسرارها وخصائص معانيها ليست مبذولة لكل احد ، ولا مذللة لكل من يبسط اليها كفا ، أو يرفع إليها طرفا ، ولكن لمن اذا نظر كان وما ينظر شيئا واحدا ، والشئ لا يعرفه الا شبيهه ولا يحيط بها إلا ضريبه ، أو ما فيه شناشن ** ، كما يعرف الحديد الحديد ويجتذبه اليه ، والإنسان من طينة الأرض فليس ينسى منبته أو تخفى عليه طيفته وجرثومته ، والطبيعة كتاب مطوى ، تعلن منه فى كل عصر صحائف يتلوها على الناس أناس هدوا إليها ودلوا عليها وكشف لهم عنها ، ورفعت الحجب بينهم وبينها (٣٢) .

نعود إلى اسماعيل أدهم ، فنلاحظ انه ، وإن لم يبسط القول فى علاقة الشاعر بالطبيعة ، إلا أنه كان على وعى بالتوجه المعرفى للشاعر والعالم بالنسبة لاسماعيل أدهم هو كل ما هو خارج الذات ، أو لنقل الموضوع وتأتى الطبيعة مشتملة لهذه الرؤية .

فالشاعر من حيث هو صاحب فن هو ذلك الإنسان الذى ينفذ بوجدانه وبصيرته الى ما وراء الأشكال الخارجية للحياة مصروفا عن العمل بالتعلق ملء نفسه بالحياة فى اعماق الاشياء غير ان الحياة لاتؤتى الشاعر باكثر من هزات تصله بجانب من جوانب الحياة الداخلية للأشياء رافعة جانبا من الوشاح الذى بين الشاعر والحياة الداخلية للأشياء فيفيض الشاعر من وجدانه بخلجات طالما ترددت فى أعماق نفسه القصية كلحن موسيقى . غير ان هذه الخلجات فى خروجها من العالم الخارجى ، تستعير الأنغام لتبدو لحنا كلاميا ملحوظا (٣٨) .

فالشاعر ينفذ ببصيرته للعوالم الداخلية التى تنطوى فى سراديب النفس ليمد بصره نحوالعالم الخارجى . هنا يكشف اسماعيل أدهم معنى قوله: " إن التعبير عن الشاعرية هو كل أغراض الشاعر " . فالشاعرية فى هذا السياق النقدى تشى بصدق تصوير الشاعر للباطن . وعندما تكتمل الرؤية تستعين بالأوزان أو القوافى أو ما يقوم مقامها لتخرج الى العالم الظاهر متميزة بنبرات يتميز بها الشعر عن بقية ضروب الكلام ليؤلف (الشاعر) وحدة موسيقية يتمكن ان يصب فيها الخلجات التى تتردد فى وجدانه ، وهو حين يصب هذه الخلجات فى الألفاظ فإنها تتصاعد فتكون وحدة لا يمكن أن تفصل الألفاظ فيها عن الشعور ، والشاعر فى ذلك كالموسيقى (٣٩) .

ونجدأصداء الناقد الانجليزى برادلى واضحة فى ربط اسماعيل أدهم بين حقيقة المعنى الشعرى واللفظ المعبر عن المعنى . وقد أشار الى ذلك صراحة فى النص المقتبس من محاضرة برادلى ." الشعر للشعر " وفيها يقول برادلى : ان الشاعر كالموسيقى ، " وكما أنه لا يوجد فى الموسيقى انغام فى جانب ومعان يعبر عنها بهذه الأنغام فى جانب آخر ، بل يوجد هناك فقط صوت تعبيرى " (٤٠) كذلك الأمر فى الشعر ، فلا يوجد ألفاظ وحدها ومعان وحدها ، إنما الفاظ تعبيرية عما فى وجدان الشاعر ، هى مظهر الشاعرية والشعر نفسه .

ويلتقى اسماعيل مظهر مع اسماعيل أدهم فى معنى الشاعرية ، وكيف أنها الاصل ، ودلالة الجوهر فى الشعر . يقول اسماعيل مظهر : " فالشعر ليس هو الوزن والقافية ، إنه فوق هذا " ومن ثم ، يرفض المفهوم التقليدى للشعر على انه " الكلام الموزون المقفى أى الكلام الذى يجرى على بحر من بحور الشعر الموضوعة وينتهى بقافية واحدة . وعندهم أن كل ما يجرى هذا المجرى من الكلام شعر . والحقيقة ان هذا التعريف الذى ينصرف على أكثر ما قال العرب من الكلام الموزون المقفى ابعد الاشياء عن تعريف الشعر . فقد يكون الكلام موزونا مقفى وبينه وبين الشعر بعد ما بين الموت والحياة من الفروق . وقد يكون كلاما منثورا يمت الى الشعر باقرب الأسباب . إذن فمعتقدنا أن الوزن والقافية لا يكونان الشعر أى انهما ليس مما يتقيد به الشعر .

بل على الضد من ذلك ، يستعين الشعر بالوزن والقافية لتكون له تلك الأنغام الموسيقية التى تميز الشعر على بقية ضروب الكلام . وإذن تكون الشاعرية أصل أدائها الوزن والقافية . أى على الضد مما ذهب إليه العرب من القول بأن الوزن والقافية اصل ادائها الشاعرية.

أما اذا جارينا العرب على تعريفهم فقد ضيقنا حدود الشعر وقتلنا الشاعرية لأن كل إنسان يشعر بوجوده . قد يكون الشاعر فى بعض الظروف ، وإن عجز عن التعبير بكلام موزون مقفى . وعلى نقيض التعريف الذى وضعه العرب قد يصبح اكثر النظام شعراء . وقد تخرج الكلمات الشعرية الجامعة برمتها من حظيرة الشعر وهى من عيون الشعر الأخاذ (٤١) .

فالشعر - عند اسماعيل مظهر - جوهر عرضه الصناعة ، وأنت أينما بحثت عن الجوهر لتدركه بحواسك فانك عاجز ما لم تستعن بوجدانك وروحك ، لا بحسك وحده . فاذا وقعت

على الشعر الصحيح رأيت انه ليس الوزن ولا القافية ولا اللفظ ولا المعنى ولا الموسيقى ، إنما هو شئ غير هذه جميعا . مثلك لو أخذت قطعة من المادة بين يديك وحاولت على قول القدماء أن تميز فيها بين الجوهر والأعراض . فليس الجوهر هو الثقل ولا اللون ولا الطول ولا العرض ولا الصورة ولا أى شئ مما يجرى مجرى الأعراض المحمولة فى الجواهر . أما الجوهر فأين هو ؟ هو موجود إدراكا ، لأن الأعراض محمولة فيه . أما وجوده حسا ، فذلك ما ليس فى مستطاعنا ان نصل اليه . أما اذا أدركت هذا فأنت مفرق اذن بين " الشعر " وبين صناعة النظم (٤٢) .

ويربط اسماعيل مظهر ، شأنه شأن كل رومانسى أصيل ، بين الشاعرية وحقيقة الوجود الإنسانى " فالشعر تعبير صادق عن الوان تستحيل إليها النفس الانسانية ... لتشعر بأنها موجودة وأنها حقيقة تقوم دليلا على الوجود كما يقول ديكارت " أنا أفكر - انا اذن كائن " وكما يجب ان يقول الشاعر " أنا اشعر - انا اذن كائن (٤٣)

وأشير الى وعى نقاد النظرية الرومانسية بطبيعة العلاقة بين الشاعر والطبيعة (٤٤)، وإن اختلفت أو تباينت آراءهم فى مدى هذه العلاقة وهم جميعا متأثرون بالنظرية الرومانسية الغربية . ولست هنا فى مجال دراسة التاثير والتأثر . لكن قراءة الآراء النقدية لاسماعيل أدهم ، واسماعيل مظهر صاحب مجلة " الصور " ومدرسة الديوان ، والمهجر وابولو تؤكد وجود هذه الأفكار وصدور أصحاب المدارس المذكورة عنها .

هوامش الفصل الثانى :

(١) ابن رشيق : العمدة ، ط . الرابعة ، ١٩٧٢ . /١١٦ .

(٢) الأنعام : ١٠٩/٦ .

(٣) لم اعثر على كلمة " شأر " فى ملاخى الاصحاح الثانى ، فقرة ١٥ ، كما ذكر اسماعيل أدهم ، وفتشت عنها فى " قاموس الكتاب المقدس " دون جدوى .

انظر : قاموس الكتاب المقدس : هيئة لتحرير ، د. بطرس عبد الملك ،

د . الكساندر طمس ، ابراهيم مطر ، د . ت .

(٤) انظر : المقتطف ، فبراير ١٩٣٩/١٥٤ .

و " شعراء معاصرون " ، الجزء الثانى من المؤلفات الكاملة للدكتور اسماعيل أحمد أدهم ، تحرير وتقديم دكتور أحمد ابراهيم الهوارى ، دار المعارف ١٩٨٤ / ١٨٠ .

(٥) المقتطف ، فبراير ١٩٣٩ ، ١٥٤ وانظر المؤلفات الكاملة (شعراء معاصرون) المصدر السابق /١٨١ .

(٦) المقتطف ، يناير ٥٤/١٩٣٩ وانظر المؤلفات الكاملة (شعراء معاصرون) / ١٦٦ .

(٧) العقاد : يسألونك ، مطبعة مصر ٧٧/١٩٤٦ .

(٨) العقاد : مقدمة ديوان وحى الاربعين/٦ .

(٩) العقاد : مراجعات فى الآداب والفنون ، القاهرة ١٩٢٥/١٦٠ .

(١٠) معراج الشعر ، مجلة الكتاب اكتوبر ١٩٤٧ .

(١١) العقاد : خلاصة اليومية ، مكتبة عمار ، ١٦٦/١٩٦٨ .

(١٢) العقاد : من مقدمته للجزء الثانى لعبد الرحمن شكرى /ط . الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٠ جمعه وحققه وقدم له نقولا يوسف/٩٧ .

(١٣) المازنى : الشعر غاياته ووسائطه ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة السفور ١٤/١٩١٥ .

(١٤) المازنى : حصاد الهيثم . ط . دار الشعب ، ٢٧/١٩٧١ .

(١٥) المازنى : مقدمته للجزء الاول من ديوان العقاد/١٤ .

(١٦) عبد الرحمن شكرى ، ديوانه /١٧ .

(١٧) عبد الرحمن شكرى /٩٥ .

(١٨) عبد الرحمن شكرى : مقدمه الجزء الثالث من ديوانه / ٢١٠ .

(١٩) اسماعيل ادهم أو الموت فى الضحى لكاتب هذه السطور ، مجلة أدب ونقد ، يناير ١٣/١٩٨٤ .

(٢٠) ثورة الأدب ، مكتبة النهضة المصرية /٦١ ، ٦٢ .

(٢١) نفسه /٦٤ ، ٦٦ .

(٢٢) تراجم مصرية وغربية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٠ ، / ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

(٢٣) انظر : المؤلفات الكاملة للدكتور اسماعيل أدهم ، الجزء الثانى ، شعراء معاصرون ، ١٧، /٤٥٦ ، /٤٥٧ .

(٢٤) المصدر نفسه / ١٦٦ .

(٢٥) المصدر نفسه / ١٧٠ .

(٢٦) المصدر نفسه / ١٧١ .

(٢٧) تاريخ الفكر العربى ، بيروت ، دار الكتاب /١٨٩ .

(٢٨) العقاد : يسألونك / ٧٦ .

(٢٩) شعراء معاصرون /١٦٨ .

(٣٠) تشارلز مورجان ، المرجع السابق /٧٧ .

(٣١) الفصول : دار الكتاب العربى ، بيروت /٣٣٦ .

(٣٢) مصالعات فى الكتب والحياة ، دار الكتاب العربى ، بيروت /٢٠٥ .

* الرِّكْزَ : الصوت الخفى . وفى التنزيل العزيز . هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . المعجم الوسيط ، مادة " ركز " .

(٣٣) محمد عبد الهادى محمود ، نظرية الصورة الشعرية عند مدرسة الديوان ، رسالة ماجستير ، غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٢/٣١٠ .

(٣٤) مطالعات ، المرجع السابق /٨ .

(٣٥) نفسه /٩ .

(٣٦) حماد الهشم ، دار الشعب ، ١٩٦٩ / ٤٤ .

** شنشن القرطاس أو الثوب الجديد ونحوه : تحرك فصوّتَ صوتا خفيفا . الشنشنة : العادة الغالبة . وفى المثل " شنشنة أعرفها من أخزم " يضرب فى قرب الشبه فى الخُلُق ، جمعها " شناشن " . المعجم الوسيط ، مادة شنشن ، الشنشنة .

(٣٧) المقتطف ، يناير ١٩٣٩ وانظر : المؤلفات الكاملة للدكتور اسماعيل أدهم ، الجزء الثانى ، شعراء معاصرون ، تحرير وتقديم دكتور أحمد ابداهيم الهوادى / ١٦٩ .

(٣٨) نفسه .

(٣٩) نفسه .

(٤٠) برادلى فى محاضراته " الشعر للشعر " ترجمها ولخصها أحمد زكى ابو شادى " انظر كتابه " قطرة من يراع فى الأدب والاجتماع ، القاهرة ١٩٢٧ ، / ٢١/٢٠ .

(٤١) مجلة أبولو ، العدد الاول من المجلد الأول ، يوليو ١٩٣٢/٥٦ .

(٤٢) حول حافظ وشوقى واثرهما فى احياء الشعر العربى ، المقتطف ، ديسمبر ١٩٣٢ . / ٥٥٤ .

(٤٣) ألدكتاتورية فى الأدب ، أبولو ، مارس ١٩٣٣/٧٩٤ .

(٤٤) انظر ، محمد عبد الهادى محمود ، نظرية الصورة الشعرية عند مدرسة الديوان رسالة ماجستير ، غير منشورة /٣١٤ - ٣٢٢ .